

رحمة للعالمين: قراءة في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم

A Study of the Seera'h of the Holy Prophet (SAW) – A Mercy for Mankind- as Exemplified by his Life

Dr. Badr Ūddīn

Associate Professor, Federal Urdū University, Karāchi, Pākistān

Email: drqaribadaruddin@hotmail.com

Dr. Sardār Aḥmad

Assistant Professor, Federal Urdū University, Karāchi, Pākistān

Email: sardar_khan@gmail.com

DOI: 10.33195/uochjrs-v2i(4)1282019

Abstract:

The prophet of Islām, Muḥammad (SAW) has been introduced by Allāh, the Creator of this universe, as the “mercy for the whole universe”. The holy Prophet (SAW) lived his entire life as a testimony to this grand compliment from Allāh Almighty. His extraordinary compassion towards his followers, all other human beings is acknowledged to be worth copying and there has been no denial of the claim yet. He was an epitome of love, mercy, compassion and tolerance. He not only practiced these virtues himself, but also inculcated them in his companions, advised his followers i.e. all Muslims to practice and preach them to entire humanity at large. He forgave his worst enemies and tormentors when he subdued them, either individually, or collectively. His historic declaration of universal pardon on the conquest of Makkā'h has no parallel in history. His life history and teachings are replete with examples of extreme compassion and mercy. This paper is an attempt to bring home this point by presenting the evidences to support this claim.

Keywords: Muhammad, Mercy, Shahadā'h, Islām, Qur'ān

المقدمة:

الرقّة والعطوفة والرأفة صفة باطنية. كل فرد رجل* كان أو امرأة خلق على طبع الرحمة، ولكن هذه الصفة متفاوتة بحسب الأشخاص والأفراد. الرحمة كلمة جامعة لكل أنواع الخير المادي، والمعنوي.

يقول ابن فارس:

"الراء والحاء والميم أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة، يقال من ذلك

رحمه يرحمه إذا رق له وتعطف عليه".¹

وقال الجاحظ:

"الرحمة نتيجة الود، والرحمة هي محبة للمرحوم".²

والرحمة هي صفة من صفات النبي عليه السلام حيث ورد هذه الكلمة مرارا في القرآن الكريم ونستشهد على ذلك بالآيات التالية:

الشهادة الأولى:

هي قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ.³ حيث ذكر أن رحمته وسعت جميع الخلائق.

الشهادة الثانية

"فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ".⁴

معناه (ولو كنت فظا) حافيا (غليظ القلب) قاسيا (لانفضوا من حولك) لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم.⁵

الشهادة الثالثة:

"لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ".⁶

هذه الآية تدل على أن نبينا كان خلقا على الرأفة والرحمة كما قال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية: «(من أنفسكم) من جنسكم ومن نسبكم عربي قرشي مثلكم(عزيز عليه) شديد عليه فهو يخاف عليكم الوقوع في العذاب (حريص عليكم) على إيمانكم (بالمؤمنين) منكم ومن غيركم (رؤوف رحيم) قيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم».⁷

خطابات النبي صلى الله عليه وسلم للأمة الدالة على الرحمة:

كان نبينا رحيمًا وشفيقًا وأثبت ذلك بقوله وفعله ومما يدل على رحمته عليه السلام قوله:

"من أم منكم الناس فليخفف، فإن فيهم الكبير والصغير والمريض وذا الحاجة".⁸

يعني إذا كان أحدكم إماما للناس فليخفف صلاته في جميع أفعالها وخاصة في القراءة لأن كل واحد من المصلين لا يستطيع أن يتحمل طولها، فرغب الإمام أن يكون معتدلاً في أداء الصلاة ولا يطيل في الركوع والسجود والقراءة.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ لما طاول بالناس الصلاة: "أفتان أنت يا معاذ".⁹

كلمة «فتان» هي كلمة زجر وتوبيخ، ما خرج من فم النبي صلى الله عليه وسلم في حق أصحابه، وخاصة في حق الصحابي الذي له فضيلة علم وفضل وأرسله عاملاً، أميناً، قاضياً إلى اليمن، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يتحمل أن يؤذي الناس ولو في أداء فريضة، بل يريد أن يؤدي

الناس أحكام الله تعالى بالسكون والطمأنينة.

وقال صلى الله عليه وسلم: لولا أن أشق على أمتي أو على الناس لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة.¹⁰ ولكن ما أمره بل رفع أمر السواك عن الأمة وتأخير صلاة العشاء لخوف المشقة. ولم يقتصر رحمته عليه السلام على الناس فقط بل شملت الحيوانات والطيور كما ورد في الحديث: "عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: "قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فانطلق لحاجة فأبنا حمرة، معها فرخان، فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تفرش وجاء النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها".¹¹ وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم».¹²

فهذه الأقوال كلها تدل على رحمته بالحيوانات وهناك مواقف أخرى في حياته عليه السلام ما يدل على هذه الصفة. وقد روي أنه لما بكت أمامة بنت زينب (ابنته)، حملها وهو يصلي بالناس فإذا سجد، وضعها، وإذا قام رفعها، وسجد مرة، فصعد الحسن على ظهره، فأطال السجود، فلما سلم اعتذر للناس، وقال: «إن ابني هذا أرحلني فكرهت أن أرفع رأسي حتى يتزل».¹³

نبي الرحمة للمرأة:

كانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة لجميع أقسام المهنة والظلم وتوكل حقوقها وتبتر أموالها وتعزل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجها وتورث كما يورث المتاع أو الدابة. وقد بلغت كراهة البنات إلى حد الوأد وذكر الهيثم بن عدي. على ما حكاه عنه الميداني، أن الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة، فجاء الإسلام وكانت مذاهب العرب مختلفة في وأد البنات، فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة، ومخافة حقوق العار بهم من أجلهن. فجاء الإسلام ومحا هذا الظلم عن المرأة، وعين النبي صلى الله عليه وسلم لها حقاً ومنع وأد البنات حتى جعل ولادة الصبية رحمة لأهلها، وتقرر في حق المرأة: «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً»، إلى آخره.¹⁴

وروي أن أعرابياً جاء يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال أحسنتُ إليك، قال الأعرابي لا، ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئاً ثم قال: أحسنتُ إليك؟ فقال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه الصلاة والسلام: إنك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك، قال: نعم، فلما كان العشاء جاء فقال عليه السلام: أن هذا الأعرابي قال ما قال فردناه فزعم أنه رضي كذلك: قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال عليه

الصلاة والسلام: مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة نفرت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا فناداهم صاحبها: خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها، وإني لو شركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار، وقال عليه السلام: لا يبلغني أحد منكم عن أصحابي شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر وكان يسمع بكاء الصبي فيتحوز في صلاته¹⁵

معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لأعدائه:

هل سمعتم بواعظ يعظ الناس بأن يجيوا أعداءهم ويحثهم على مودة مبغضيههم وقد ورد في قصة الهجرة أنه عليه السلام لما خرج من مكة ومعه صاحبه أبو بكر تعقبهما سراقة وهما في طريقهما إلى المدينة، وكان يطمع بجائزة قريش، وهي مئة من الإبل لمن يأتي برأس رسوله صلى الله عليه وسلم، فجعل يركض فرسه والطمع في الجائزة يستفز حتى دنا منهما، وخاف أبو بكر على الرسول، ودعا الرسول ربه أن يعصمهما من شره فساخت قوائم فرس السراقة في الرمل فأحضرته أن يترجل، وجعل يستقسم بالأزلام كعادتهم في الجاهلية، ومع ذلك ظلت قوائم الفرس في الرمل، فألقن السراقة بالشر، وعزم على الرجوع فنادى الرسول وطلب منه الأمان، وأن يكتب له بذلك كتابا وأن لا يؤاخذه يوم تعلق كلمته، فيتغلب على قريش، فأمر الرسول أبا بكر، فكتب له كتاب الأمان، فلما فتحت مكة، ورأى سراقة بعينه كيف تغلب الرسول صلى الله عليه وسلم وعلت كلمته دخل في الإسلام ولم يؤاخذه الرسول بما كان يريد من قتله بل لم يسأله عن ذلك البتة.¹⁶

وهذا أبو سفيان الذي زحف بالجيش لإبادة المسلمين وقاد المشركين في بدر وأحد والخندق، وكان قائدهم في معظم الحروب التي قامت بين المشركين والمسلمين. وكم من مسلم قتل وجرح في تلك المعارك، لكن أبا سفيان هذا مع كل ما تقدم منه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع عمه العباس قبل فتح مكة يطلب العفو ولو أنه قتله لكان بذلك معذورا لكنه بعث رحمة للعالمين، ولقد وسعت رحمته أبا سفيان فشمله عفو ولم يكتف بالعفو بل أكرمه وأعزه ونادى في الناس يوم فتح مكة: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».¹⁷

وهنا قاتل حمزة رضي الله عنه قد خرج هاربا يوم الفتح يلتمس مكانا آخر ليخبا فيه حتى قال له قائل: إنك لا تعلم ما نعلم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم، إنك لن تجد لنفسك مأمنا إلا عنده فحضره خائفا، فلما وقع عليه نظر النبي صلى الله عليه وسلم عض عنه بصره وتذكر في تلك اللحظة عمه حمزة وقتله بيد هذا الرجل فذرفت الدموع من عينيه وها هو القاتل أمامه ولو أراد أن يقتص منه لكان ذلك حقا وعدلا، لكنه عفا عنه واكتفى قائلا: لا إليك عني! فإني إذا أتيتك تذكرت

عمي حمزة وشهادته¹⁸

رحمته على الحيوانات:

الرحمة هي في اللغة تقتضي العموم، فيلزم هذا العموم أن تكون على الخلق كلهم، فلهذا تلاحظ في السطور الآتية أن النبي صلى الله عليه وسلم كيف كان رحيمًا على الحيوانات. هناك أقوام يدعون اليوم أنهم السابقون إلى نشر مبادئ الرفق بالحيوان، لكن الإسلام قد سبقهم إلى ذلك منذ مئات ومئات من السنين، فوضع أسامي القواعد للرفق بالحيوان الأعجم الذي لا ينطق وقد قال عليه الصلاة والسلام في هذه الحيوانات: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة التي لا تنطق فاركبوها صالحة (قوية) وكلوها صالحة. وهنا مرَّ بعض الناس على النبي صلى الله عليه وسلم بحمار قد وسمَّ في وجهه (والو سم هو الكي)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أما بلغكم إني لعنت من وسم البهيمة في وجهها أو ضربها في وجهها".

عن ابن مسعود أن النبي صلوات الله عليه قال:

"من قتل عصفورا عبثًا جاء يوم القيامة يحجج إلى الله يقول: يا رب إن هذا قتلي عبثًا لم ينتفع بي ولم يدعني أكل من خشاش الأرض".¹⁹

وفي رواية:

"عذبت امرأة بسبب هرة سجننتها حتى ماتت فدخلت النار لا هي أطعمتها وسقته إذ هي حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض".²⁰

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول صلى الله عليه وسلم قال:

"بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا، فترل فيها، فشرب ثم خرج، فاذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي فترل البئر فمألاً خفهما ثم أمسكه بيده حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، فقالوا: يا رسول الله فإن لنا في البهائم أجرًا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «بكل كبد رطبة أجر» وفي رواية «بينما كلب يطوف ببئر كاد يقتله العطش إذ رأته بغية من بغايا بني إسرائيل فترعت خفها فاستقت له به فسقته إياه فغفر لها به".²¹

قصة سجود الجمل وشكوتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم:

عن أنس رضي الله عنه قال:

"كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يستقون عليه الماء، وأنه استصعب عليهم فمنعهم ظهره، وأن الأنصار جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا إنه كان لنا جمل نستقي عليه، وأنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش

الزرع والنخل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قوموا، فقاموا فدخل الحائط والجمل في ناحية، فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه فقال الأنصار: يا رسول الله قد صار مثل الكلب، وإنما نخاف عليك صوتته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس عليّ منه بأس، فلما نظرا الجمل رسول الله أقبل نحوه حتى خر ساجدا بين يديه، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بناصيته أذل ما كانت قط حتى أدخله في العمل، فقال أصحابه يا رسول الله! هذه بهيمة لا تعقل كيف تسجد؟ فنحن أحق أن نسجد لك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو صح لبشر أن يسجد بشرا لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها".²²

خلاصة الكلام:

إن حياة النبي صلى الله عليه وسلم مليئة بجميع ما يحتاج إليه كل إنسان وخاصة المسلمون بل لم يترك ولا ناحية من نواحي الحياة وقد نورها بتعليمات القرآن جليلة في حياة أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين بأكملها مما يدل على كون النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين وقد اطلعنا على بضعة أمثال خلال هذا البحث وقد اقتبسنا نكتا هامة منه ولم نستطع الإحاطة بجميعها إلا أن هذا البعض هو المحرك الأساسي لتكون متصفين بصفة الرحمة تجاه كل الخلق حتى نكون بذلك مقتدين بسيرته عليه السلام على وجه الكمال.

الهوامش والإحالات

- 1- ابن فارس، أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ٤/١١٨.
- 2- المتخصصون تحت إشراف شيخ صالح بن عبد الله الحميد، نضرة النعيم، جدة، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ٦/٢٠٦٢.
- 3- سورة الأنبياء: ١٠٧.
- 4- آل عمران: ١٥٩.
- 5- النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود، تفسير المدارك (تفسير النسفي)، كراتشي، قديمي كتب خانة، ١/٣٠٦.
- 6- التوبة: ١٢٨.
- 7- النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود، تفسير المدارك (تفسير النسفي)، كراتشي، قديمي كتب خانة، ١/٧١٩.

- 8- بخاري، محمد ابن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، بيروت، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ، رقم الحديث: ٧٠٣ ج١/ص١٤٢.
- 9- بخاري، محمد ابن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، بيروت، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ، رقم الحديث: ٧٠٥ ج١/ص١٤٢.
- ١٠- بخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، بيروت، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ، رقم الحديث: ٨٨٧، ج٢/ص٤.
- ١١- سجستاني، سليمان ابن الأشعث، سنن أبي داود، بيروت، المكتبة العصرية، رقم الحديث: ٢٦٧٥، ج٣، ص٥٥.
- ١٢- بخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، بيروت، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ، رقم الحديث: ٧٢٨٨، ج٩/ص٩٤.
- ١٣- سيرة ابن هشام، بيروت، دار ابن حزم، ص٤٩.
- 14- الندوي، علي أبو الحسن بن عبد الحي، ماذا خسر العالم بأخطا المسلمين، مصر، مكتبة المنصور، الطبعة الجديدة، ص: ٦٠.
- ١٥- خضري، محمد بن عفيفي الباجوري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، دمشق، دار الفيحاء، الطبعة الثانية: ١٤٢٥هـ، ص: ٢٥٨.
- ١٦- الندوي، سيد سليمان الحسيني، الرسالة المحمدية، دمشق، دار ابن كثير، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ، ص: ١٦٤.
- *- الصلابي، علي محمد، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السابعة: ١٤٢٩هـ، ص: ٢٥٧.
- ١٧- الندوي، سيد سليمان الحسيني، الرسالة المحمدية، دمشق، دار ابن كثير، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ، ص: ١٦٥.
- *- مباركفوري، صفي الرحمن، الرحيق المختوم، بيروت، دار الهلال، الطبعة الأولى، ج١، ص٣٦٩.

- ١٨- الندوي، سيد سليمان الحسيني، الرسالة المحمدية، دمشق، دار ابن كثير، الطبعة الأولى: ١٤٢٣ هـ، ص: ٦٦.
- *- القرطبي، محمد بن رشد، من المقدمات أبي الوليد، ص ٣٢٩.
- 19- خطب الجمع والأعياد، عبد الله بن محمد، دار المنار، ج ٤، ص ٣٤٣.
- 20- بخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، بيروت، دار طوق النجاة، ١٤٢٢ هـ، رقم الحديث: ٣٤٨٢ ج ٤/ص ١٧٦.
- 21- بخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، بيروت، دار طوق النجاة، ١٤٢٢ هـ، رقم الحديث: ٣٤٦٧ ج ٤/ص ١٧٣.
- 22- الشامي، محمد بن يوسف، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤١٤ هـ، ج ٩، ص ٥١١.



@ 2017 by the author, Licensee University of Chitral, Journal of Religious Studies. This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) (<http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>).